﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ۝٢﴾

[محمّد ﷺ: 2]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تفصيلُ حالِ المؤمنين وما أعدَّهُ لهُم من الثَّواب، بعدَ ذِكْرِ حالِ الكافرين وما أعدَّهُ لهُم من العقاب

لمّا بَيَّنَ اللّه تعالى مآلَ الكافرينَ وعاقبةَ جُحودِهم، وما أعدَّ لهُم من إحباطِ الأعمالِ وسوءِ المصير، أتبعَهُ ببيانِ حالِ عِبادِه المؤمنين، الذين آمنوا بقُلوبِهم، وأخلصوا أعمالَهم، وصَدَّقوا بالوحيِ الذي أنزَلَه على نبيِّه مُحمَّدٍ ﷺ، إقرارًا بأنَّه الحَقُّ النّازلُ من عندِ ربِّهم، وما أعدَّه لهم من الجزاءِ العظيمِ والثَّوابِ الكريم، فقال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾[1]. فهو تعالى "لمّا ذَكَرَ أهلَ الكُفرِ مُعبِّرًا عنهُم بأدنى طبَقاتهم ليَشمَلَ مَنْ فوقهُم، ذَكَرَ أضدادَهُم كذلكَ ليعمَّ مَن كانَ منهم مِن جميعِ الفرق"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَفَّرَ﴾: أصله يدلُّ على معنى السَّتر والتَّغطية، وكلّ ما غطَّى شيئًا، وكلّ مَن سترَ شيئًا فقدَ كفرَهُ، ويُقالُ للزّارعِ: كافرٌ؛ لأنَّهُ يُكفِّرُ البذرَ، أي: يُغطّيهِ ويَسترُهُ بالتُّرابِ، والكُفرُ: ضدُّ الإيمانِ، فهو تغطيةٌ للحقِّ[3]، ومعنى تكفير السَّيِّئات: سترُها ومَحوُها وتغطيتُها، فلا تُرى، ولا يُؤاخَذونَ عليها[4].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 18/ 197.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 33/ 28، والنّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 128.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كفر).

(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 409، وابن جرير الطبري، جامع البيان: 12/ 180.

2) ﴿وَأَصْلَحَ﴾: الصَّلاحُ: ضِدُّ الفَسادِ، وهُما مختصّانِ في أكثرِ الاستعمالِ بالأفعال[1]، والصَّلاحُ: الاسْتِقامَةُ والاعْتِدالُ، يُقالُ: صَلَحَ، وصَلُحَ يَصْلُحُ، صَلاحًا، وصُلوحًا، أيْ: اسْتَقامَ واعْتَدَلَ، وأصْلَحَ الشَّيْءَ بَعْدَ فَسادِه: أقامَهُ وعَدَّله[2]، ويأْتي بِمَعْنَى الخَيْرِ والنَّفْعِ، ومِنْ مَعاني الصَّلاحِ: السَّلامَةُ، والصِّحَّةُ والصَّوابُ والكَمالُ[3].

3) ﴿بَالَهُمْ﴾: البالُ: الحالُ التي يُكتَرَثُ بها، يُقالُ: ما باليتُ بكذا بالةً، أي: ما اكْتَرَثْتُ به[4]، والمعنى هُنا: شأْنَهم وحالَهم وخاطِرَهُم؛ بالتَّوفيق في أمورِ الدّين والدُّنيا[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بَيَّن اللّه تعالى حالَ ومآلَ أهلِ الإيمان الذين آمنوا بقلوبٍ خاشِعة، وصدَّقوا إيمانهُم بعمَلٍ صالحٍ خالصٍ لوجهِ اللّه، متَّبعين شريعتَهُ، موقِنينَ بأنَّ القرآن الذي أنزَلَهُ على نبيِّه محمَّد ﷺ هو الحقُّ الذي لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يدَيه ولا من خلفِه، فإنَّه تعالى تفضَّلَ عليهم بعَفوِه، فمَحا زلّاتِهم، وغفرَ سيِّئاتِهم، فلم يُؤاخِذْهُم بها، بل زادَهُم من فضلِه، فأصلحَ شأنَهُم، وهيَّأ لهُم أسبابَ السَّعادةِ في الدُّنيا، وأعدَّ لهم النَّعيمَ المُقيمَ في الآخرة، فكان لهُم من فضلِه وكرمِه ما يُسعِدُهم ويُبلِّغُهم أرفعَ المراتبِ[6].

إكـــرامُ أهـلِ الإيـمـان بتكفيرِ الـسّـيـئـات وإصلاحِ البالِ في الحالِ والمآل

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).
(2) ابن سيده، المحكم: (صلح).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صلح).
(4) الأصفهاني، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بال)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بول).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 180، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 295، والمكي، المُعين على تدبر الكتاب المبين، ص: 507.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 180، والواحدي، الوسيط: 4/ 118، والقُرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 224، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 306، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 784.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة التَّعبير بأسلوب المُقابلة:

تَبايُنُ المصيرِ بَيْنَ أهـلِ الـجُـحـودِ وأهل التَّصديق

في هذهِ الآيةِ الكريمةِ ضَرْبٌ من المُقابلة البديعة، والموازَنةِ المُحكمَة مع سابقتِها بين حالِ أهلِ الإيمان وحالِ أهل الكفران؛ إذْ جاءَت أوصافُ كلٍّ منهما مُتقابلة، فالإيمانُ يُقابلُ الكفر[1]، وقولهُ تعالى: ﴿نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ يُقابلُ صَدَّ الكافرينَ عن سبيلِ اللّه، وجزاءُ المؤمنين وعاقبةُ أمرهم الحميدة في قوله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، تُقابلُ إضلالَ أعمالِ الكافرين؛ فكما أضَلَّ اللّه أعمالَ الكافرين - ولو ظهَرَ منها ما يحسبُهُ الجاهلُ من أعمال البِرِّ - فقد أكرَمَ المؤمنينَ بأنْ مَحا عنهُم خطاياهُم[2]، وأصلحَ شأنَهم، فتجلَّت بذلك سنَّتُه الحكيمةُ؛ إذْ كان الجزاءُ من جنسِ العملِ، فكان التَّقابلُ بَيْنَ الفئتين أبلغَ ما يكون؛ إذ بالضِّدِّ يظهَرُ الضِّدُّ، وبهِ تتجلَّى الفروقُ وتبرُزُ الحقائقُ، وما أروعَ هذا التَّقابلَ! إذ أضفى على المعنى رونقًا وبهاءً، وأكسبَ البيانَ قوَّةً وجلاءً[3]، فإنَّ المُقابلة من أبدع أساليب البلاغة؛ إذ تُبرِزُ الحقائقَ، وتشدُّ الأذهانَ، وتجعلُ القلوبَ على بيِّنةٍ من أمرِها، فلا يبقى لمُسترشدٍ عن سبيلِ الهدى عُذرٌ، ولا لمُتردِّدٍ في الحقِّ ريبةٌ، فتتجلَّى بذلك منزلةُ الإيمان الرَّفيعة عند اللّه، وعظيمُ أثره في حقيقةِ الحياة؛ إذْ لا تستوي الظُّلمات والنّور، ولا الضَّلال والهدى.

معنى العطف ودلالتُه في مطلعِ الآية الكريمة:

خُتِمَتِ الآيةُ الأولى بما يُجلّي ضياعَ جهدِ الكافرين في صدِّهم عن سبيلِ اللّه، ثمَّ جاءت الآيةُ التي تليها لتُؤكِّدَ تحقُّقَ هذا الضَّياعِ؛

(1) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 9/ 65.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/ 35، والطِّيبي، حاشية الطِّيبي على الكشّاف: 14/ 321.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 74/ 26، 75، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 237.

التَّقريرُ الجازم للحقِّ، بذكرِ المؤمنين وجزائهم بعدَ ذِكرِ حالِ الكافرينَ وجزائهم

إذ ابتدأت بذكرِ المؤمنين الذين مضَوا على نهجِ الله القويم، ولم تُجْدِ معهم حيَلُ الكافرين، ولا حَبائلُ المُضلّين؛ إذ خابت مساعيهم، وبطلت مكائدُهم، فلم يَزِدِ المؤمنينَ ذلك إلّا ثباتًا على الحَقِّ، وسَيرًا على الصِّراطِ المستقيم، فجاءت الآيةُ الكريمةُ تُبشِّرُ المؤمنينَ بجزاءٍ كريمٍ من عندِ الله؛ إذ تولَّى سبحانه عنهم تكفيرَ سيِّئاتهم، وأصلحَ بالَهم، فكانت لهم البُشرى في الدُّنيا والآخرة. وقد ابتدأت الآيةُ بالواو العاطفة، وهي أداةٌ تربطُ بين الجُمَل، فتؤلِّفُ بينها، وتجمعُ معانيَها في عقدٍ بديعٍ منسجم، فجاءت هذه الواو واصلةً بين الآية الثّانية ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وبينَ سابقَتها، ليكتملَ بها نظامُ البيان، وتتَّضحَ بها أواصرُ المعاني، فتجتمع الآيتان في الخبريَّة، وإن اختلفَ مَضمونُهُما؛ إذِ الأولى جاءَت تَقُصُّ حالَ الكافرين وما آلَ إليه أمرُهُم من بُطلانِ السَّعي، والثّانيةُ تُعلنُ فضلَ الله على المؤمنين وإحسانَه إليهم، وفي هذا التَّرتيبِ الحكيمِ تقريرٌ جازمٌ للحقِّ، وإيضاحٌ بيِّنٌ لجزاءِ المؤمنين، يظهَرُ من خلاله التَّباينُ العظيمُ بين سبيلِ المُهتدينَ ومسلكِ الضّالّين، فشَتّانَ بين من بُشِّرَ بجزاءِ الله، ومَن خابَ سعيُه وضلَّ عملُه، وتلك حكمةُ الله في خَلقِه، وهو أحكَمُ الحاكمين[1].

الغرضُ من التَّعبير بالاسم الموصول (الذين):

بيانُ رفعةِ شأنِ المؤمنين، ومدحُهم بما تضمَّنَته صلةُ الموصول، والتَّشويقُ إلى الجزاءِ المأمول

تعريفُ المسندِ إليه بالموصوليَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، جاء لبيان رفعةِ شأنِهم، ومدحِهم بما تضمَّنَته صلتُهُ من الإيمانِ والعملِ الصالحِ، مع تشويقِ السّامعِ إلى ما يترتَّبُ على هذا الإيمانِ من الجزاءِ الكريم، وهو قولهُ تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، فوُرودُ الموصولِ في هذا السّياقِ إشارةٌ إلى علَّةِ بناءِ الخبرِ، وتنبيهٌ على السَّببِ الذي استحقّوا به هذا الفضلَ العظيمَ[2].

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 36، وفاطمة السيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 225 - 226.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 74/ 26.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

الدَّلالةُ على التَّمكُّنِ في الإيمان والرُّسوخِ فيه

وصَفَهُم الله بالإيمان فقال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ والإيمانُ هو التَّصديقُ القَلبيُّ، وصيغَ الفعلُ ﴿ءَامَنُواْ﴾ ماضيًا ليُبيِّنَ أنَّ الإيمانَ فيهم راسخٌ مُتمكِّنٌ في قلوبهم؛ فإذا كان المؤمنُ بهذا الوصفِ فقد آمنَ قلبُه، واطمأنَّت سريرَتُه، فانقادَت له جميعُ جوارحه ليَظهَر على الجوارح العملُ بطاعة الله ﷻ، واجتنابُ نَواهيه.

بلاغةُ حذفِ مفعول ﴿ءَامَنُواْ﴾:

في الحذف إفادَةٌ للتَّعميمَ، وإيجازٌ في البيان

في حذفِ المفعولِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إيجازٌ بليغٌ؛ إذ التَّقديرُ: (آمَنوا بجميعِ ما يجبُ الإيمانُ به)، فجاء الحذفُ ليعُمَّ كلَّ ما تقتضيهِ العقيدةُ من أصولِ الإيمانِ وأركانه، فيكونُ المعنى بهذا الحذفِ أشملَ وأوسَعَ؛ وهذا من دقائقِ البلاغةِ في القرآنِ الكريم؛ إذِ اجتمعَ في هذا الموضعِ التَّعميمُ مع الاختصارِ، فكان أوجزَ لفظًا وأبلغَ معنًى[1].

دلالةُ عطفِ العملِ الصّالح على الإيمان في ﴿وَعَمِلُواْ﴾:

الإيمانُ نورٌ لا يكتمِلُ سَناهُ إلّا بالعمل

لمّا كان الإيمانُ الحقيقيُّ لا يقتصرُ على التَّصديقِ القلبيِّ وحدَه، بل لا يتمُّ إلا ببرهانِ العملِ، عطفَ النَّظمُ الكريمُ العملَ الصّالحَ على الإيمانِ في قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، إشارةً إلى تلازُمِهما، وأنَّ العملَ الصّالحَ فرعٌ عن الإيمانِ، وليُبيِّنَ أنَّ حقيقةَ الإيمانِ نورٌ يستقرُّ في القلبِ، فتنعكسُ أنوارُه على الجوارحِ، فتخضعُ لأمرِ الله، وتنقادُ لشرعِه، فيتَّحدُ ظاهرُ العبدِ مع باطنِه، فأهلُ الإيمان الحقِّ أقاموا البُرهانَ على صدقِ إيمانِهم، لا بالأقوالِ المجرَّدةِ، ولا بالأمانيِّ الكاذبةِ، بل بالعملِ الصّالحِ الذي هو ثمرةُ التَّصديقِ، ودليلُ اليقينِ، فصدَّقت جوارِحُهم ما انطوَت عليه جوانِحُهم فاستقاموا على

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 17/ 425، وأسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1254، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 26/ 5194.

الأعمال الصّالحة التي تُرضي المَولى ﷻ فكانت سرائرُهم مُطمئنةً بالإيمانِ، وجوارحُهم عاملةً بطاعةِ الرَّحمنِ، فكملَ لهم بذلك الإيمانُ، وصدَقَ فيهم وعدُ الله بالجزاءِ الأوفى[1].

بلاغةُ الاحتراسِ بذكر الصّالحات:

الإيمانُ أساسٌ متينٌ، والعملُ الصّالحُ بنيانُهُ المَكين

لمّا كان الإيمانُ الصّادقُ لا ينفكُّ عن العملِ الصّالحِ، جاء العطفُ عليه في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ﴾، فكان في ظاهرِه كفايةٌ للدَّلالةِ على أنَّ الأعمالَ التي تصدرُ عن أهلِ الإيمانِ إنَّما هي صالحةٌ؛ لأنَّ الإيمانَ الصَّحيحَ لا يُثمرُ إلّا عمَلًا صالحًا، لكنَّ النَّظمَ الكريمَ لم يقتصرْ على العطفِ بذِكْرِ العمَلِ مُجمَلًا، بل أفصحَ بذكرِ الصّالحاتِ تفصيلًا، فكان ذلك إطنابًا بديعًا واحتراسًا رفيعًا، وهو من أساليبِ البيانِ التي تزيدُ المعنى تقريرًا، فهُم قد شَغَلوا أوقاتَهم بالصّالحاتِ، وحرصوا على أدائها، فلا يلتفتون إلى غيرها، ولا ينصَرفون عنها، فجمَعوا بين صحَّةِ الاعتقادِ وحُسنِ السلوكِ، فاستحقّوا بذلك التَّكريمَ الإلهيَّ والجزاءَ الجزيلَ من ربِّ العالمين[2].

الغرضُ من التَّعبير بالمفعولِ به جمعًا مُعرَّفًا ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

العملُ الصّالحُ أيًّا كان نوعُه سبيلٌ لرضى الله تعالى، والقُرب منه

المُرادُ بالصّالحاتِ في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، هو جميعُ الأعمالِ الصّالحةِ على اختلافِ أجناسِها، وتفاوتِ مراتبِها، فلم يقصرِ الذِّكرُ الحكيمُ على نوعٍ دونَ آخر، بل جاءَ اللَّفظُ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عامًّا مُطلقًا ليشمَلَ كلَّ عمَلٍ محمودٍ، صغيرًا كانَ أم كبيرًا، ظاهرًا أم باطنًا، فرضًا أم نفلًا، ممّا يُرضي الله ويُقرِّبُ إليه، فيدخلُ فيها كلُّ معروفٍ، ويشملُ كلَّ إحسانٍ؛ من أداءِ الحقوقِ، وصلةِ الأرحامِ، وإغاثةِ الملهوفِ، وكفِّ الأذى، وبذلِ الخيرِ للنّاسِ، وغيرِ ذلك ممّا تزكو به النُّفوسُ، وتسمو به الأرواحُ، فيكونُ العبدُ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 283.

(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 306، والدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 65.

بذلك متحقِّقًا بحقيقةِ الإيمانِ، جامعًا بين نورِ العقيدةِ وسَناءِ العملِ؛ فمَن اجتهدَ وسابقَ فلهُ الأجرُ الأوفى، ومن قنعَ بالقليلِ فلهُ نصيبٌ ممّا قدَّم، واللّه واسعُ الفضلِ، جزيلُ العطاءِ[1].

دلالةُ عطفِ الإيمانِ بما نُزِّلَ على النَّبي ﷺ على الإيمانِ المطلق:

في الاعتناء بشأن القرآنِ الكريم، تنبيهٌ عَلَى شرَفِهِ وسُموِّ مكانته

عَطْفُ النَّظمِ الكريمِ الإيمانَ بالقرآنِ الكريم على الإيمانِ المُطلق في ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، مع اندارجِهِ فيه، هو من قبيلِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ اعتناءً بشأنِ القرآنِ الكريم، وتَنْبيهًا عَلَى شَرَفه وعُلوِّ مَكانه وسُموِّ مَقامه بين ما يجبُ الإيمانُ به، فالنُّكتةُ البلاغيَّةُ في ذِكرِ الخاصِّ بعد العامِّ التَّنويهُ على فضل الخاصِّ وميزَتِهِ، وفيه دليلٌ على أنَّ الإيمانَ لا يَتِمُّ إلّا بالتَّصديقِ بالقرآنِ الكريم وجَعْله منهجًا للحياة[2].

سِرُّ التَّكرارِ في الفعل (آمنوا):

تكرارُ اللَّفظِ إثراءٌ للمعنى وتأكيدٌ للمَبنى

تكرارُ الفعلِ (آمَنوا) في النَّظمِ الكريم فيه إشارةٌ بديعةٌ إلى تنوُّعِ دلالةِ المعنى، فجاء الأولُ ليُبيِّنَ أصلَ الإيمانِ الذي يعمُّ كلَّ ما يجبُ التَّصديقُ به من أصولِ الدّينِ وأركانِ العقيدةِ، ثُمَّ جاء الثّاني ليُبرِزَ اختلافَ مراتبِ الإيمانِ، فلا يكتملُ ايمانُ مُؤمنٍ إلّا بالإيمانِ بالقرآنِ الكريمِ، وجعلِه منهاجًا يُحتكَمُ إليه، ويُتَّبعُ هديهُ في شؤونِ الحياةِ كلِّها[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بِ الموصول (ما):

إفادةُ العموم والشُّمول في الوحي المُنزَّل على النَّبيِّ ﷺ، وإبرازُ جلالهِ وكمالِه

قولُه تعالى: ﴿بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ هو القرآن الكريم والسُّنَّة الصَّحيحة؛ لأنَّها وحيٌ إلهيٌّ يتلقّاه رسول اللّه ﷺ فصيغةِ الموصولِ (ما)، زادتِ المعنى إحاطةً وشمولًا؛ إذ يشملُ كلَّ ما نُزِّلَ على الرَّسولِ

(1) الجزائري، أيسر التّفاسير: 5/ 70، والدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 65.
(2) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 9/ 458، والشّوكاني، فتح القدير: 5/ 36، والشّنقيطي، أضواء البيان: 7/ 246.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 315، والقاسمي، محاسن التّأويل: 8/ 464.

الكريمِ من أحكامٍ وهداياتٍ وتعاليمَ، وفيها مع هذا تعظيمٌ لشأن الوحي المُنْزَل على النَّبي ﷺ وهذا يُبرزَ جلالَة الوحي وكمالَه[1].

الغرض من بناء الفعل ﴿نُزِّلَ﴾ للمفعول:

جاءَ الفعلُ ﴿نُزِّلَ﴾ مَبنيًّا لما لم يُسمَّ فاعلُه، تنويهًا بشأن القرآن المُنَزَّل، وتعظيمًا لشأن المُنْزِل ﷻ، فلم يُذكرِ الفاعلُ وهو الله ﷻ؛ لأنَّه معلومٌ من سياقِ الكلام، فلا مُنزِلَ للقرآن إلّا هو نزَّلَه هاديًا ونورًا، وخَصَّ به خيرَ خلقِه، وأكرمَ أنبيائِه، وهو النَّبيُّ المُصطفى ﷺ، فكانَ في حذفِ الفاعلِ إشعارٌ بجلالةِ المنزِّلِ والمنزَّلِ عليه، وتأديبٌ للعبادِ في تلقّيهِ بإجلالٍ وتَعظيمٍ؛ إذِ الإيمانُ بالقرآنِ روحُ الاعتقادِ ومِدادُ الرَّشاد[2].

القرآن تنزيل حكيم من مُنزِّلٍ عظيم على نبيٍّ كريم

دلالةُ الفعل الماضي ﴿نُزِّلَ﴾:

جاءَ الفعلُ بصيغةِ الماضي، تأكيدًا على التَّحقُّقِ والثُّبوتِ في الإنزال، وتنبيهًا على أنَّ هذا القرآنَ حقيقةٌ ثابتةٌ، لا مدخلَ فيها للرَّيبِ والشَّكِّ؛ فهو تنزيلٌ كاملٌ مُحكمٌ، نزلَ بأمرِ الله، واستقرَّ بحكمتِه، ليكونَ للخلقِ نورًا لا ينطفئُ، وهدًى لا يزولُ، ورحمةً تمتدُّ إلى قيامِ السّاعةِ، فجاءت صيغتُه الماضيةُ شاهدًا على وقوعِه، وبيانًا لتمامِ أمرِه، فهو تنزيلٌ لا مِريةَ فيه، وحقٌّ لا تبديلَ له[3].

صيغةُ الماضي تُدلِّلُ على تحقيقِ الوقوعِ، وتُفيدُ التَّقريرَ والثُّبوت

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ وبلاغةُ الاستعارةِ في شِبْهِ الجُملة ﴿عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾، وهو حرفٌ يُفيدُ الاستعلاءَ، وقد جاءَ التَّعبيرُ به هُنا بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ إذ شُبِّه الاستعلاءُ المعنويُّ بالاستعلاءِ الحِسّيِّ، ليُشعرَ بعُلوِّ مَكانةِ القرآنِ ورفعةِ شرفِه، فكأنَّه جاءَ من مَقامٍ رفيعٍ ومَحلٍّ عالٍ، فنزلَ على النبيِّ

حرفُ الاستعلاءِ شاهدٌ على رِفعةِ الوحيِ وسُموِّ معناهُ، وسُموِّ قَدرِ المُنَزَّلِ عليه

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 315، والجزائري، أيسر التّفاسير: 5/ 70.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 197، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 4/ 3.
(3) الزُّحيلي، التّفسير المنير: 26/ 79.

ﷺ من مُقام العظمةِ والجلالِ، فكانَ ذلك تصويرًا لحقيقةِ التَّنزيلِ في أبهى حُلَلِ البيانِ، فجاءَ التَّعبيرُ بهذا الحرفِ مُحمَّلًا بالإجلالِ والتَّكريمِ، يرفعُ قدرَ المُنزَّلِ به كما يُعظِّمُ المُنزَّلَ عليه[1].

دلالةُ التَّعبير بالعَلَميَّة بِذِكْرِ الاسم الشَّريف ﴿مُحَمَّدٍ﴾:

ذكـرُ المُصطفى باسمهِ الشَّريفِ إعـلاءٌ لـقـدرِهِ المُنيف

جاءَ ذكرُ النبيِّ ﷺ باسمهِ ﴿مُحَمَّدٍ﴾، لاستحضارِه بعَينه في ذهنِ القارئ أو السّامعِ تعظيمًا وتشريفًا له، حَيْثُ شَرَّفهُ اللّه ابتداءً بتنزيلِ الوحيِ عليه، ثم صَرَّحَ باسمه العَلَم ﴿مُحَمَّدٍ﴾ - الذي هو أخَصُّ أسمائهِ وأشهَرُها - لزيادة التَّخصيصِ والتَّكريمِ، وهو ممّا يُحرِّكُ بواعثَ الإيمانِ في القلوب[2].

بلاغةُ الكنايةِ في الجُملةِ الكريمة:

كنايةُ التَّنزيلِ دلالـــةٌ عـلى ارتباطِ الرِّسالةِ بالرَّسول

جملة ﴿بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ كنايةٌ عن موصوفٍ وهو القرآنُ الكريمُ، وقد عبَّر النَّظمُ الكريمُ عنه بطريقِ الكِناية - وهو أبلَغُ - ليشمَلَ الإيمانَ بالرَّسول ﷺ فكانَ التَّعبيرُ بهذه الصّيغةِ أبلغَ وأفخَمَ؛ إذ جَمعَ بين تشريفِ النَّبيِّ ﷺ وبين بيانِ ارتباطِ الكتابِ به ارتباطًا وثيقًا؛ فهو الذي جاءَ به، وهو الذي نطقَ بوحيهِ، فصارَ الإيمانُ به مُستلزمًا للإيمانِ بمبلِّغه، فلا يقبلُ اللّه أحدَهما دونَ الآخرِ، فجاءَ التعبيرُ بهذه الكنايةِ المُحكَمةِ ليُرَسِّخَ هذا المعنى في القلوبِ، ويُؤَكِّدَ أنَّ هذا القرآنَ هو البرهانُ الأكبرُ على صدقِ نبوَّته، فكما لا يكونُ الكتابُ إلّا بوحيٍ، لا يكونُ الإيمانُ به إلّا بتصديقِ الموحَى إليه[3].

بلاغةُ التَّجريد بتخصيص ذِكْرِ الايمان بالكتاب المُنَزَّل على الرَّسول المُبَجَّل:

في قَوْلِه تعالى ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ تجريدٌ للاختصاصِ،

(1) الطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 218، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة محمّد ﷺ: 6/ 230.

(2) فاطمة السيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة محمّد ﷺ: 6/ 231.

(3) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 315، والطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 218، وفاطمة السيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة محمّد ﷺ: 6/ 231.

واعتناءٌ بأمر الإيمان بالقرآن العظيم، وقد جاءَ بعدَ العمومِ في قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فكانَ هذا التَّخصيصُ إيذانًا بأنَّ الإيمانَ لا يتمُّ إلّا بالتَّصديقِ التّامِّ بهذا التنزيلِ المبارَكِ، الذي نزلَ على سيِّدِ المرسلينَ، وخاتمِ النبيّينَ، محمَّدٍ ﷺ. ولذلك أكدَّهُ بالجُملة الاعتراضيَّة، في قوله بعد ذلك: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾[1].

الإيـــذانُ بـأنَّ الإيـمـانَ لا يَتِمُّ إلّا بالتَّصديقِ الـتّـامِّ بـهـذا التَّنزيلِ المبارك

بلاغة الجُملة الاعتراضيَّة:

جملةَ ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جاءَت معترضةً بَيْنَ الكلامِ، لتُقرِّرَ حقيقةً راسخةً، وتُرسِّخَ في القلوبِ أحقّيَّةَ هذا الكتابِ الكريمِ، فيكونَ الإيمانُ به واجبًا لا تردُّدَ فيه، والتَّصديقُ به لازمًا لا محيدَ عنه، فهو الحقُّ الثابتُ الذي لا يُبدَّلُ، والقولُ الفصلُ الذي لا يُرَدُّ ولا يُعطَّلُ، وهو النّاسخُ لِما سبقَ من الشَّرائعِ، المُهيمنُ على ما تقدَّمَ من الكتبِ، وفي وُرودِ هذه الجملةِ الاعتراضيَّةِ إيذانٌ بعظمةِ شأنِ المؤمنينَ الذين صدَّقوا بهذا النّورِ المبينِ؛ إذ كانَ إيمانُهم به إيمانًا ثابتًا، لا يَتزعزَعُ ولا يزولُ؛ فكما أنَّ الحقَّ لا تبطلُ حُجَّتُه، ولا تَضيعُ آثارُه، ولا تَزولُ بركتُه، فهو محفوظٌ بحفظِ اللّه، قائمٌ على الدَّهرِ لا يُدركُه زوالٌ، فإذا كانَ هذا قدرُ القرآنِ، وهذه منزلتُه، فليس بعجيبٍ أن يُفرَدَ بالذِّكرِ، ويُخَصَّ بالحديثِ، فقد استقلَّ بخصائصِ الكمالِ، واستأثرَ بصفاتِ العظمةِ والجلالِ[2].

ترسيخ أحقيَّة القرآن المُنزَّل في القُلوب

بلاغةُ القصر بتَّعريفِ الطَّرفين ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾:

سيقَتِ الجُملةُ الكريمةُ ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ لإثباتِ شهادةِ اللّه ﷻ بأنَّ القُرآنَ المُنزَّلَ على رسولِه مُحمَّدٍ ﷺ هو الحَقُّ الثّابتُ الذي لا يأتيهِ الباطلُ من بَيْنِ يَدَيْه ولا من خلفه، وتلك حقيقةٌ ثابتةٌ ومُقرَّرةٌ،

هيمنةُ القرآنِ على ما سبَقهُ، وثبوتُ حقيَّته فلا يُدانيه كتابٌ ولا يُماثِلُهُ خطابٌ

(1) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 280، وأبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 9/ 458.
(2) الطِّيبي، حاشية الطِّيبي على الكشّاف: 14/ 321، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة ﷺ: 6/ 232.

وقد جاءَ نظمُ هذه الجملةِ مُحكمًا في تقريرِ هذه الحقيقةِ الرّاسخةِ؛ إذ صيغَت بطريقِ الحصرِ بتعريفِ الجُزأين، فجاءَ هذا القصرُ قاطعًا لكلِّ شُبهةٍ، مُزيلًا لكلِّ ارتيابٍ، حيثُ أُثبِتَت الأحقّيَّةُ للقرآنِ، ونُفيَت عن غيرِه من الكتبِ التي اعتراها التَّحريفُ والتَّبديلُ، فصارَ هو الكتابَ الذي لا يَعتريهِ نَسْخٌ، ولا يُداخِلُهُ زَوالٌ، فثبَتَ أنَّهُ وحدَهُ الحقُّ الذي ينبغي الإيمانُ به، والاهتداءُ بنوره، فهو المهيمنُ الحاكمُ، ولا كتابَ بعدَهُ، ولا هُدى لمَن أعرَضَ عنه، فكانَ هذا الحصرُ بأسلوبه القويِّ القويمِ شاهدًا على إفرادِ القرآنِ بالحقّيَّةِ؛ إذ انحصَرَ الحقُّ فيه، وتلاشَت عنه كلُّ مُزاحمةٍ؛ فلا يُقاسُ به كتابٌ، ولا يُشبهُهُ كلامٌ[1].

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتها في ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾:

ابـتـداءُ الغايةِ شاهدٌ على سُموِّ العطيَّةِ ورِفعةِ الهداية

قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾، أي: الحقُّ النّازلُ من ربِّهم؛ فجاءت ﴿مِن﴾ لتُبيِّنَ ابتداءَ الغايةِ، فتُفصحَ عن مَصدرِ هذا الكتابِ المُباركِ، وتُشيرَ إلى أنَّ مُنْزِله ليسَ بشرًا ولا مخلوقًا، بل هو اللّه ﷻ الذي أنزَلهُ بحِكمته، وأوحاهُ بعِلْمه، فكانَ تنزيلًا ربّانيًّا، وهُدًى سماويًّا، لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يديه ولا من خلفِه؛ وفي هذا التَّعبيرِ إشعارٌ بعَظَمةِ المُنزِّلِ، وإظهارٌ لجلالِ المُنزَّلِ[2].

الغرضُ من الإضافة في ﴿رَّبِّهِمْ﴾ وسِرُّ إيثار عنوان الرَّبوبيَّة:

إفرادُ الرُّبوبيَّةِ في هذا المقامِ دلالةٌ عـلى الـعـنـايـةِ والإنعامِ

قوله تعالى ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾، أي: المُحْسِنُ إليهم بإرساله؛ ففي اختيارِ النَّظمِ الكريمِ لفظَ ﴿رَّبِّهِمْ﴾ بدلًا من ذكرِ الاسمِ الأعظَمِ (اللّه) دلالةٌ على التَّربيةِ الرَّبّانيَّة، والهدايةِ السَّماويَّة، التي أرادَها اللّه لعباده، فجعلَ هذا الكتابَ منهجًا يُصلِحُ أحوالَهم، ويرفعُ شأنَهم، ويُخرجُهم من ظُلماتِ الجهلِ إلى أنوارِ المعرفةِ واليقينِ[3].

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 119، والضِّمدي، الفرات النّمير، ص: 179، والمظهري، التّفسير المظهري: 8/ 420.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، ص: 341، والجاوي، مراح لبيد: 2/ 414.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 198، والمهائمي، تفسير المهائمي: 3/ 267.

وفي التَّعبيرِ بوصفِ (الرَّبِّ) زيادةٌ في التَّنويهِ بشأنِ المؤمنينَ؛ إذ لم يُذكَر في موضعِ الكافرينَ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، فكأنَّ في ذلكَ تقريرًا بأنَّ اللّه سُبحانهُ هو ربُّ هؤلاءِ المؤمنينَ، ومالكُ أمرِهم، والمتصرِّفُ في شؤونِهم، يُدبِّرُ لهم أحوالَهم بأحسنِ التَّدبيرِ، ويُهيِّئُ لهم أسبابَ الفلاحِ في الدُّنيا والآخرةِ، فكما أنزلَ عليهم خيرَ كتابٍ، وبعثَ فيهم خيرَ رسولٍ، فقد شاءَ لهُم الهدايةَ، وأرادَ بهم الخيرَ، فلا عجبَ أن يُقبلوا عليه، ولا غَرابَةَ أن يُؤمنوا بآياته؛ إذْ كانَ هذا القرآنُ أعظمَ الهداياتِ، وأصدقَ الكلامِ، وأثبتَ الحقائقِ، فكانَ جديرًا بالإيمانِ، جديرًا بالاتِّباعِ، ومَن أعرضَ عنه فقد أعرَضَ عن النّورِ الذي لا ظُلمةَ فيه، وعن الهُدى الذي لا ضَلالَ بعدَهُ[1].

إيناسُ المؤمنين بعنوان الرُّبوبيَّةِ، والإشعارُ بعظيمِ العنايةِ والرِّعاية بهم

سِرُّ الإضافة الى ضميرِ المؤمنين في قوله: ﴿رَّبِّهِمْ﴾:

في إضافةِ لفظِ ﴿رَّبِّهِمْ﴾ إلى ضميرِ المؤمنين دلالةٌ عظيمةٌ على شرفِ المُضافِ إليهم، تكريمًا لهم، وتشريفًا لمقامِهم، وإظهارًا لعظيمِ منزلتِهم عندَ اللّه ﷻ، فإنَّ من تَحَقَّقَ بهُدى اللّه، وسارَ على منهجِه، رفعَهُ اللّه مكانًا عليًّا، وأعلَى قدرَهُ بَيْنَ الخلقِ، فصارَ في أعيُنِ النّاسِ عزيزًا، وفي قلوبِهم مُهابًا؛ لأنَّهُ عبدٌ لربِّه، مُخلصٌ لدينه، متَّبِعٌ لصراطه المستقيم[2].

الدَّلالةُ على شرفِ المُضافِ إليهم، تكريمًا لهم، وتشريفًا لمقامِهم

بلاغة التَّقديم والتَّأخير في الاية الكريمة:

في تقديمِ المُسنَدِ إليهِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على الخبرِ في قوله ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ تنبيهٌ بديعٌ وإشارةٌ لطيفةٌ إلى علوِّ مقامِ أهلِ الإيمانِ، واستحقاقِهم لهذا الجزاءِ العظيمِ؛ إذْ قدَّموا بَيْنَ يدي رحمةِ اللّه صِدقَ الإيمانِ، وأخلصوا في العملِ الصّالحِ، فآمنوا بما أنزلَ اللّه على رسله، وصدَّقوا بمُحمَّدٍ

تقديمُ ذكرِ أهلِ الإيمانِ شاهدٌ على رفعةِ الشَّأنِ واستحقاقِ الغفرانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 75/ 26.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 307.

ﷺ خاتمِ النبيينَ، فأدَّوا حقَّ اللّه تعالى عليهم، وأقاموا فرائضَ الدّينِ، وعملوا صالحَ الأعمالِ، فاستحقّوا بذلكَ أن يُكفِّرَ اللّه تعالى عنهمُ سيِّئاتِهم، فتكونَ لهم النَّجاةُ من عذابِ الدُّنيا والآخرةِ، ولم يكنْ جزاؤُهم قاصرًا على تكفيرِ الزَّلّاتِ، بل أسبغَ اللّه عليهم نعمةَ الإصلاحِ في شؤونِ دينِهم ودنياهم، فطهَّرَ قلوبَهم، وزكَّى أعمالهم، ونمَّى لهمُ الثَّوابَ، وأصلحَ جميعَ أحوالِهم، فاستقامت لهم طريقُ الهدايةِ، وتهيَّأت لهم أسبابُ السَّعادةِ، فكانَ ذلكَ جزاءً وفاقًا، وثوابًا كريمًا، أعدَّهُ اللّه لعباده الصّادقينَ، الذين استجابوا لدعوته، وسلكوا صراطَ الحقِّ القويمِ، فحُقَّ لهم الفوزُ العظيمُ، ورضوانُ اللّه المقيمُ[1].

الغرضُ من التَّعبير بالخبر جملةً فعليَّةً ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ﴾:

في التَّعبيرِ عن الخبرِ في قوله تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ بجملةٍ فعليَّةٍ دلالةٌ بليغةٌ؛ إذ جاءَ هذا الإخبارُ بعدَ التَّشويقِ، فلم يُذكر الجزاءُ ابتداءً، بل تأخَّرَ ليكونَ انتظارُهُ باعثًا على توقُّدِ الشَّوْقِ في القلوبِ، وترسيخِ المعنى في النُّفوسِ، حَتَّى إذا جاءَ ذِكْرُهُ، وقعَ موقعَ السُّرورِ والبشارةِ، فازدادَ وقعهُ جلالًا في السَّمعِ، وتأثيرًا في القلب[2].

الـــزّيـــادةُ في الـــتَّـــشـــويـــقِ والـــتَّـــعـــظـــيـــمِ للبشارةِ

سِرُّ التَّعبير بالتَّكفير للسَّيِّئات دون مَحوِها:

اختارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿كَفَّرَ﴾ دونَ (مَحا)، لِما في ذلكَ من التَّلاؤمِ البديعِ، والتَّعبيرِ الدَّقيقِ عن عظيمِ فضلِ اللّه على عبادِهِ المؤمنينَ، فقد بَيَّن أنَّ الإيمانَ هو السَّببُ في سترِ السَّيئاتِ، فكأنَّه ألقى عليها غطاءً يُخفيها، فلا تظهرُ بعدَهُ أبدًا، بل حَلَّ محلَّها ما هو أكرمُ وأفضل، وفي هذا التَّعبيرِ بشارةٌ ما كانت لتتحقَّقَ لو قيلَ (مَحا سيِّئاتهم)؛ إذ إنَّ المحوَ يقتضي زوالَ الشَّيءِ حسبُ، دونَ أن يُثبِتَ

الـتَّـكـفـيرُ سترٌ لـلـذُّنـوب مع مزيد إحسانٍ

(1) حنان عودة، سُورة محمّد ﷺ، دراسة أسلوبيّة بلاغيّة، ص: 192.
(2) فاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 233.

مكانَهُ شيئًا آخرَ، أمّا التَّكفيرُ، فهو سترٌ يُغطّي السَّيِّئاتِ بما هو أبهَى وأزكَى، كما يُغطَّى الثَّوبُ البالي بثوبٍ نفيسٍ نظيف، فكانَ في هذا التَّعبيرِ القرآنيِّ إكرامٌ مضاعفٌ؛ إذ لم يُمحَ أثرُ الذَّنبِ حسبُ، بل غُطّي بما هو خيرٌ وأفضلُ، فصارَ التَّكفيرُ عطاءً، وزالَ أثرُ الخطيئةِ بمزيَّةِ الإحسانِ، وما أكرَمَ اللّه على عباده المؤمنينَ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ بالتَّكفير:

في التَّعبيرِ بلفظِ ﴿كَفَّرَ﴾ صورةٌ بيانيَّةٌ تُحرِّكُ الذِّهنَ، ومجازٌ[2] يبعثُ في المعنى روحًا، فهي استعارةٌ مكنيَّةٌ بديعةٌ، حيثُ شُبِّهتِ السّيئاتُ - وهي أمرٌ معنويٌّ - بشيءٍ حِسّيٍّ يُستر ويُغطَّى، فلم يُذكرِ المُشبَّهُ به صراحةً، بل حُذِفَ ورُمِزَ إليهِ بلازمٍ من لوازمهِ، وهو فعلُ ﴿كَفَّرَ﴾، الذي يُفيدُ السَّترَ والتَّغطيةَ، فكأنَّ الذُّنوبَ شيءٌ ظاهرٌ مشوَّهُ الصّورةِ، يُغطَّى بستارٍ من العفوِ والغفرانِ، فلا يعودُ له وجودٌ ولا أثرٌ، وهذه الصّورةُ البيانيةُ لا تقتصرُ على الإيضاحِ حسبُ، بل تُضفي على الكلامِ رونقًا وبهاءً، فتكسوهُ حسَّ الجمالِ والتَّخييلِ، فيتلقّاهُ القلبُ بقبولٍ وإقبالٍ، ويتأثَّرُ به تأثُّرًا أعظمَ، لأنَّهُ لا يُصوِّرُ المعنى تصويرًا مُجرَّدًا، بل يجعلهُ مَحسوسًا مُدرَكًا، وكأنَّ العبدَ يُبصِرُ سيِّئاته وهي تُطمَسُ وتُسترُ بستارِ المغفرةِ، فيبعثُ ذلكَ في نفسهِ رجاءً ورحمةً، ويملأُ قلبَهُ تعظيمًا لكرمِ اللّه وإحسانه، حيثُ لم يقتصرْ على إزالةِ الذَّنبِ، بل أبدله بغطاءِ الرِّضا والرَّحمةِ، فحُقَّ لهذا التَّعبيرِ أن يكونَ آيةً في الحُسنِ والبيانِ، وغايةً في الإعجازِ والإتقانِ.

الـذَّنـبُ شيءٌ ظـاهـرٌ مـشـوَّهُ الصّورةِ، يُغطَّى بستارٍ من العفوِ والـغـفـرانِ، فلا يعودُ له وجودٌ ولا أثر

بلاغةُ حذفِ المُسندِ إليه:

حُذِفَ المسندُ إليهِ في قوله تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾؛ إذِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/ 35.

(2) يرى بعض المفسرين أن التّعبير بتكفير السّيئات هو مجاز مُرسل في المحو والإزالة، وهو قول له وجه، يُنظر: الطّنطاوي، التّفسير الوسيط 13/ 218.

التَّقديرُ (كفَّر الله عنهُم سيِّئاتهم) وجاءَ هذا الحذفُ للإيجازِ، مع بقاءِ المعنى بيِّنًا ظاهِرًا، لا يلتبسُ ولا يَشتبهُ، فإنَّ تكفيرَ السَّيِّئاتِ لا يكونُ إلّا من الله ﷻ، فهو وحدَهُ المالكُ للمغفرةِ، والمتفرِّدُ بسترِ الذُّنوبِ، والعفوِ عن العبادِ، فجاءَ الحذفُ شاهدًا على تعيُّنِ الفاعلِ؛ لأنَّهُ معلومٌ بحكمِ العقلِ والشَّرعِ[1].

في الحذف إيجازٌ في اللَّفظِ، وإعجازٌ في المعنى

الغرضُ من تقديم شبهِ الجملةِ ﴿عَنْهُمْ﴾ على المفعولِ به ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾:

في تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَنْهُمْ﴾ على مُتعلَّقِهِ في قوله تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ لطيفةٌ بلاغيَّةٌ رفيعةٌ، فيها من الاختصاصِ والتَّشريفِ ما فيها؛ ففي هذا التَّقديم إشارةٌ بيِّنةٌ إلى أنَّ هذا الجزاءَ العظيمَ قد خُصَّ به هؤلاءِ المؤمنونَ وحدَهُم؛ فلا يُشاركُهم فيه غيرُهم، فكما انفردوا بالإيمانِ والعملِ الصالحِ، فقد انفردوا بالتَّكفيرِ والإصلاحِ، فكانَ الجزاءُ وِفاقًا للعملِ، مكافئًا له في جزيلِ العطاءِ وعظيمِ الإحسانِ، وتضمَّنَ هذا التَّقديم أيضًا تعظيمًا لشأنِ المؤمنينَ، ورِفعةً لمقامِهم؛ إذ جُعِلَ ذِكرُهم متقدِّمًا في موضعِ التَّشريفِ، فجاءَ تقديمُهم مزيدَ عنايةٍ بهم، وتأكيدًا على علوِّ مكانتِهم عندَ الله، وإيذانًا بأنَّهم أهلٌ لهذه الرَّحمةِ العظيمةِ، التي نالتهُم من فضلِ الله وإحسانه؛ فما أكرَمَها من بشارةٍ، وما أعظمَهُ من تشريفٍ[2].

تعظيمُ شأنِ المؤمنينَ وتشريفُهم؛ إيذانًا بأنَّهم أهلٌ لهذه الرَّحمةِ العظيمة

الغرضُ من التَّعبير بالمفعولِ بهِ جمعًا مضافًا ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾:

جاءَ هذا الجمعُ مضافًا إليهم في ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، وقد أُسنِدَتِ السَّيِّئاتُ إليهم لا لزيادةِ التَّشنيعِ، بل ليُفصحَ عن عظيمِ كرمِ الله؛ إذ يُكفِّرُ عنهُم ما هو منهُم، ويسترُ عليهم ما صدرَ من أنفسِهم وإن كَثُرَ، فيكونُ ذلكَ أدعَى لاستشعارِ النِّعمةِ، وأعظمَ في استجلابِ الخشوعِ والانكسارِ بينَ يدي الغفورِ الرَّحيمِ.

الإفصاحُ عن عظيمِ كرمِ الله عليهم ليكونَ أدعَى لاستشعارِ النِّعمةِ

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 306، والحجازي، التّفسير الواضح: 3/ 457.
(2) فاطمة السيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة محمّد ﷺ: 6/ 234 - 235.

الفَرْقُ بَيْنَ مَغْفِرَةِ الذُّنوبِ وتَكْفيرِ السَّيِّئاتِ:

جزاءُ الخَوفِ من اللهِ وخَشيَتِه السَّترُ ومَحْوُ السَّيِّئات

لفظُ المغفرة يتضمَّن الوقايةَ والحِفْظَ، ولفظُ التَّكفير يتضمَّنُ السَّترَ والإزالةَ، وعندَ اقترانِ الذُّنوب والسَّيِّئات ينصرفُ معنى الذُّنوب الى الكبائر، ومعنى السَّيِّئاتِ الى الصَّغائر، وعليه تكونُ المغفرةُ للذُّنوب والتَّكفيرُ للسَّيِّئات[1] قال تَعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آلُ عِمرانَ: 193] فالمغفرةُ أكملُ من لفظِ التَّكفير، ولهذا كان مع الكبائر، والتَّكفيرُ مع الصَّغائر، وعندَ الانفرادِ يدخلُ كُلٌّ منهُما في معنى صاحبه قال تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَرُ: 53]. وفي التَّعبير بلفظ ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ إيماءٌ بعدَمِ ارتِكابِهِمُ الكبائرَ، ومِن ثمَّ فإنَّ صغائرَ ما ارتكبوهُ يستحقُّ أن يُستَرَ جزاءً، وتكريمًا.

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾:

إتباعُ المغفرةِ بالإصلاحِ، كمالٌ للنِّعمةِ وتمامِ الفلاحِ

في عَطْفِ قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ على قوله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ سرٌّ من أسرارِ البيانِ الإلهيِّ؛ إذ جاءَ ليجمعَ بينَ نعمَتينِ عظيمَتين، فكما أنَّ تكفيرَ السَّيئاتِ تطهيرٌ لما كانَ من الماضي، فإنَّ إصلاحَ البالِ تأمينٌ لما هو آتٍ من المُستقبلِ، فلا يُنعم الحقُّ سُبحانهُ بمَحوِ الأوزارِ فقط، بل أتبَعَ ذلكَ بإصلاحِ القلوبِ، وتيسيرِ الأحوالِ، وإقرارِ الطُّمأنينةِ في النُّفوسِ، فتتحقَّقُ بذلكَ سعادةُ الأبدِ للعبدِ في دُنياهُ وأُخراهُ[2].

دلالةُ اختيار لفظِ البال، وكونُه مُضافًا في ﴿بَالَهُمْ﴾:

إصلاحُ البالِ، مفتاحُ السَّعادةِ وعنوانُ الكمالِ

البالُ في لسانِ العَرَبِ الحالُ التي يُكتَرَثُ بها، ويُعبَّرُ بهِ عن الشَّأنِ الذي ينطوي عليهِ الإنسانُ، فحينَ يقالُ: (خطرَ ببالي)، فهو إشارةٌ

(1) ابنُ القيم، مدارِجُ السَّالِكين: 1/ 317.

(2) فاطمة السيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة محمّد ﷺ: 6/ 235.

إلى ما جالَ في الفِكْرِ ودارَ في النَّفسِ، وفي قولهِ تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ جاءَ هذا اللَّفظُ جامعًا لعدَّة معانٍ؛ من إصلاحٍ للنيّات، وعِصْمَةٍ عن المعاصي في حياتهم، وأرشدَهُم إلى أعمالِ الخير[1]؛ فكانَ وعْدًا إلهيًّا بإصلاحِ أحوالِ المُؤمنينَ في شؤونِهم كلِّها؛ ظاهرِها وباطنِها، دقيقِها وجليلِها، فكما صَلُحَت سرائرُهم بالإيمانِ، صَلُحَت أمورُهم بالسَّكينةِ والاطمئنانِ، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ نعمةٌ جليلةٌ لا يُدركُ قدرَها إلّا مَن أكرَمَهُ اللّه بها، فهي كنزُ السَّعادةِ الحقيقيَّةِ، فإنَّ خزائنَ الأرض لا تنفعُ صاحبَها إذا كان مُشتَّتَ القلب، مُمزَّقَ النَّفس، مُضطربَ المَشاعر والأحوال؛ فكَم من ذي مالٍ وفيرٍ، وخزائنَ عامرةٍ، لكنَّهُ مُضطربُ الخاطرِ، مُشتَّتُ القلبِ، قد أرهَقتهُ هُمومُ الدُّنيا، وأثقلتهُ كروبُ الحياةِ، فما أغْنتهُ ثروتُهُ، ولا نفعَتهُ أملاكُهُ؛ لأنَّهُ حُرِمَ من راحةِ البالِ، وطُمأنينةِ النَّفسِ، ورِضا القلبِ[2].

بلاغةُ القَصرِ في الجُملةِ الكريمة:

الإيجازُ البديعُ في جَمعِ النِّعَمِ والإحاطَةِ بالبشائر

تُعدُّ جُملة ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ من إيجازِ القصرِ الذي جَمَعَ المعانيَ الكثيرةَ في الألفاظِ اليسيرةِ، فجاءَت هذه الكلماتُ القليلةُ بدلالاتٍ عظيمةٍ، تشتملُ على صورٍ شتَّى من النِّعمِ الإلهيَّةِ التي تأخذُ بيَدِ العبادِ إلى طريقِ الطُّمأنينةِ والرَّشادِ، وتُبرِزُ لهم حقيقةَ رحمةِ اللّه بخلقه، وعظيمَ عنايته بعباده، المؤمنين؛ فلم تقتصر عنايتهُ على غُفرانِ ذُنوبهم، بل أتبَعَ ذلكَ بإصلاحِ أحوالِهم، واستقامةِ قُلوبهم، وتيسيرِ سُبُلِهم، وإزاحةِ هُمومِهم، حتَّى يكونَ العبدُ في كنفِ الطُّمأنينةِ، مُنعَّمًا بالسَّكينةِ، مُمتلئًا بالرِّضا، قد أكرمَهُ اللّه في دُنياهُ وأُخراهُ، فتجلَّى بذلكَ فضلُ اللّه العظيمُ، ورحمتُهُ التي وسعَت كُلَّ شيءٍ[3].

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 36، والقنّوجي، فتح البيان: 13/ 48.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 308، والقاسمي، محاسن التّأويل: 8/ 464، والطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 219.
(3) فاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 238.

بلاغة الاستعارة في التَّعبير بالبال عن الحال:

صفاءُ البالِ، هِبةُ الرَّحمانِ لأهلِ الإيمانِ

في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ بديعةٌ، تجلَّى فيها البيانُ بأبهَى صوَره؛ إذ صوِّرَ البالُ - وهو أمرٌ معنويٌّ - بصورةِ إنسانٍ يُدرَكُ صلاحُهُ وتُشاهَدُ استقامَتُه، فذُكرَ المشبَّهُ وهو البالُ، وحُذِفَ المشبَّهُ به، وهو الإنسانُ، وأومِئَ إليهِ بلازمٍ من لوازمه، وهو الإصلاحُ والهدايةُ، فكأنَّ البالَ كائنٌ يحيا، فإذا أُصلِحَ اسْتَنارَت بصيرتُهُ، واستقامت طريقُهُ، وتوجَّهَ إلى الحقِّ لا يَحيدُ عنه، والمعنى في هذا المقامِ أسمَى وأعظمُ؛ إذ ليسَ الإصلاحُ قاصرًا على جانبٍ دونَ آخرَ، بل هو إصلاحٌ شاملٌ لدينِ المؤمنينَ ودُنياهم، لقلوبهم وأعمالهم، لثوابهم؛ بتنميته وتزكيته، ولسائرِ أحوالهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصُّنع والفِعل والعمَل:

الصُّنعُ أخصُّ المَعاني الثَّلاثَةِ وأرسَخُها، والفعلُ أعمُّها، والعَمَلُ أوسَطُها

الفِعْلُ لَفْظٌ عامٌّ يَدُلُّ عَلَى إحداثِ شَيْءٍ مِنْ عَمَلٍ وغَيْرِه[1]؛ فَهوَ مُطْلَقُ التَّأثيرِ من جهة مُؤَثِّرٍ[2] سواء كان عن سببٍ أو لا، ويُقالُ لِما كان بإجادةٍ وبدونها، ولِما كان بِعِلْمٍ أو غَيْرِ عِلْمٍ، وقَصْدٍ أو غَيْرِ قَصْدٍ[3]، وأمّا العمَلُ فهو عبارةٌ عن إيجادِ الأثرِ في الشَّيءِ مع امتدادِ زمانٍ، ولا يُقالُ إلّا لِما كان بقصدٍ وعِلْمٍ دون ما لم يكن عن قصدٍ وعِلْمٍ، وفي قوله تعالى هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عبَّر بالعمل؛ لأنَّه لا يكونُ إلّا بقَصْدٍ وامتدادِ زمان، فالمؤمنُ الحقُّ قاصدٌ العملَ الصّالحَ دائبٌ عليه.

وأمّا الصُّنْعُ فَهوَ: تَرْتيبُ العَمَلِ وإحْكامُهُ على ما تَقَدَّمَ عِلْمٌ به، وبما يوصِلُ إلى المُراد منه، ولذا قيل لِلْعِلْمِ المُتَعَلِّقِ بكيفيَّةِ العملِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فعل).
(2) الرّاغب الأصفهاني، المُفردات: (فعل).
(3) زين الدِّين المناويُّ، التّوقيف على مُهِمّاتِ التّعاريف، ص: 262.

صِناعَة[1]، ويَدُلُّ على رسوخِ العَمَلِ وإجادَته، فَيُقالُ للنَّجار صانِعٌ؛ لأنَّ النَّجار قد سَبَقَ عِلْمُهُ بما يُريدُ عَمَله، وعَلِمَ بالأسبابِ التي توصِلُ إلى المُرادِ من ذلك؛ فالصُّنْعُ أخَصُّ المَعاني الثَّلاثَة، والفعلُ أعَمُّها، والعَمَلُ أوْسَطُها، فكلُّ صُنْعٍ عَمَلٌ، ولَيْسَ كُلُّ عَمَلٍ صُنْعًا، وكلُّ عملٍ فِعْلٌ، ولَيْسَ كُلُّ فِعْلٍ عَمَلًا[2].

(1) الشّريف الجرجانيُّ، التّعريفات، ص: 134، والتّهانويُّ، كشّافُ اصطلاحات الفنون: 2/ 1097.
(2) أبو هلال العسكريُّ، الفُروق اللُّغويّة، ص: 134.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والخمسون،
سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 55 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-659-89-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 55 : المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-659-89-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4299298 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"